تأملات فى الفن

فى معرض مختار

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

كان الزوار جميعاً فى ركن ملتفين حول هدى هانم شعراوى، وسيدتان مفردتان فى ركن آخر تحومان حول التماثيل ، إحداها من أصحاب المعرض تشرح للأخرى الزائرة ، فعرجت إليهما ووقفت على مقربة منهما أدعى أنى أنظر فى تمثال ، بينما أنا أتسمع إلى ما تقولان ، لأرى كيف تتحدث السيدات عن التماثيل ...

ووقفنا أمام تمثال « المنجد » ... الزائرة تنظر إليه فى حيرة كأنها تخاف أن تظهر الإعجاب به ، بينما يكون هو مما لا يستحق الإعجاب ، وتخاف أن تزدريه ، بينما يكون هو من روائع المعرض فوقفت الزائرة ساكتة كأنها مستغرقة فى تأمل التمثال ، وكأنها ممن لا يتسرعن إلى إصدار الحكم على الأشياء لغرام عندها بالتحقيق والتدقيق ، وتقليب أوجه النظر ، واستقصاء المحاسن والعيوب ، كيلا يكون حكمها آخر الأمر إلا الحكم الفصل الذى لا يقبل النقض

ورأت صاحبتها أنها لو انتظرتها ، حتى تقول كلمة فى المنجد أو تعبره من غير كلام ، فإنها قد تقضى الدهر واقفة مع زائرتها وهى تمثال آدمى لطيف أنيق «أريستكرات» ، ينظر إلى تمثال من حجر متواضع ديمقراط ... فقطعت صاحبة المعرض هذه السكتة الباردة وقالت :

— مدهش التمثال ...

... فبانت الزائرة ريقها لأنها سمعت كلمة خرجت من فم صاحبتها وفى نبراتها معنى التأكيد فأدركت أن هذه الكلمة حكم على التمثال ، ولكنها لم تلبث حتى زاغت روحها مرة أخرى كأنها لم تفهم ما إذا كانت كلمة « مدهش » هذه مدحاً للتمثال أو ذماً ، وكادت روحها تتكاسل وتقنع بهذا الزيغ فتظل فى التيه الذى انتقلت إليه حتى تستدرجها صاحبتها إلى عالمنا هذا بكلمة أخرى . . . غير أن الله ألهمها أن كلمة «مدهش» هذه قد مرت بها قبل ذلك فتقلبت عينيها فى محجريها فاستدارتا فبان بياضهما وحده، واتجه إنساناها إلى داخلها يفتشان فى أعصابها وخلايا نفسها عن كلمة «مدهش» هذه ما معناها ... وأخيراً اهتدت ، وظهر عليها أنها ذكرت ، وأغلب الظن أنها ذكرتها بمجلة من المجلات العصرية التى تكتب أبناء الطبقة الراقية فقد خدمت هذه المجلات اللغة العربية إذ حملت بعض كلماتها إلى أهل الطبقة الراقية هؤلاء فلها الشكر ...

وكأن صاحبة المعرض أدركت أن زائرتها قد فهمت أخيراً أن هذا التمثال مدهش ، ولكنها إلى جانب هذا أدركت أن هذه الزائرة الصغيرة لا تزال تريد أن تعرف لماذا كان هذا التمثال مدهشاً ، فأسرعت وقالت :

— إنه مدهش لأنه Simple ، ولأنه حلو ...

... وكانت صاحبة المعرض تستطيع أن تقول « بسيط » و « جميل » ولكنها خشيت ألا تفهم الزائرة من كلامها شيئاً ، وهى زائرة عليها مظاهر اليسار ، وأمثالها وحدهن هن اللواتى يشترين التماثيل ليضعنها فى الصالونات لتكون موضوعاً لحديث الزائرين والزائرات ومجال الإشارة إليهن والتنويه بهن فى الصحف والمجلات ...

وانتقلت الزائرة من أمام تمثال المنجد إلى أمام تمثال بائع المرقسوس وهو تمثال كبير فى الحجم الطبيعى وقد صنعه صاحبه من الورق المقوى صناعة اهتم فيها بمظهر التمثال وملابسه وأدواته اهتماماً كبيراً

ورأت الزائرة ألوان التمثال فانبهرت ، وكأنها قالت فى نفسها لابد أن يكون هذا التمثال هو بطل المعرض فليس غيره تمثال مزوق منمق لابس ملابسه كلها ، وليس ينقصه إلا أن يمشى فى المعرض يبيع للناس مما يبيع ... وهنا تفتقت فى رأس الزائرة مسألة جديدة هى هذا الذى يبيعه الرجل ... الورقة مكتوب عليها بائع المرقسوس، ولكن ما هو المرقسوس؟ ... بنات الطبقة الراقية

لا يعرفن القرقسوس ! ... فسألت صاحبتها :

— دى جيلاتى ... ؟ !

وصدمنى هذا السؤال فضحكت ، وشعرت الزائرة بأنى أضحك ساخراً منها فاصطنعت السعال وأرادت صاحبة المعرض أن تنقذ زائرتها فرطنت إليها بالفرنسية كلاماً قد يكون معناه : لا تعبئى بهؤلاء الشعب . وأدركت أنى إذا وقفت بعد ذلك على مقربة منهما أو تبعتهما فإنى سأفسد الشغل على المعرض وأصحابه ، وأنا من أول الأمر لا فائدة منى للمعرض ولا نفع فلا أقل من أن أكون غير ذى ضرر ... فانتحيت جانباً أفيض حسرة على متابعة هذا الحديث الشهى الدائر بين هاتين السيدتين ... أريد أن أسمعه إلى آخره وأن أعتصر كل ما فى أسئلة الزائرة من بله ، وأن أستمتع بكل ما فى أجوبة صاحبتها من صبر وسخرية ...

ولكنى ابتعدت مجاملاً ، وعدت إلى تمثال المنجد عسانى أرى فيه شيئاً أكثر مما أشارت صاحبة المعرض لزائرتها ...

التمثال يمثل شاباً مصرياً منجداً فى جلباب قاهرى لعله كان من « اتزفير » أو « العبك » ، وهو جالس على الأرض جلسة المنجدين وفى يده القوس يضرب به القطن ... وقد كتب عليه أنه من صنع الآنسة جلاديس بولاد وأنه نال الجائزة الأولى

التمثال كله مصنوع بمهارة وحذق ولباقة ورقة ، وهو منسجم مستريح سليم لا عيب فيه إلا شيء واحد فقط ... ذلك أنه إذا أقسم لى أهل الأرض وأهل المريخ بأن الآنسة جلاديس قد نقلت هذا التمثال عن شاب منجد حقاً فإنى أصر على رفض هذا القسم ممتنعاً على الاقتناع به . وإنما وجه هذا التمثال منقول عن وجه شاب يخيل إلىّ أنه من بيئة مهذبة تهذيباً عالياً ، كما يخيل إلى أنه نفسه من المفكرين الذين لا يفتأون يحاسبون أنفسهم ليلاً ونهاراً ويتأملون فى كل ما يسنح ويعرض لهم من البوادى والظواهر ، كما أنى أرى فيه ما هو أعمق من هذا وأشد انطباعاً فى نفسه ، ذلك أنه لا بد أن يكون ذلك الشاب الذى نقل عنه هذا التمثال عاشقاً مدلهاً معذباً انكسر قلبه من الحب وهو يمسك بعقله خشية أن ينكسر هو أيضاً ...

كل هذا ظاهر فى ملامح الوجه الذى ربط على جسم هذا المنجد ، فإما أن يكون هذا التمثال منقولاً عن شاب لا صلة له بالقوس ولا بالقطن ، وإما أن يكون هذا المنجد من قراء الدكتور غالى الذين يدوخون فى تفهم النسبية والألكترونات وما إلى ذلك من المصاعب ، على أن يكون هذا القطن الذى « ينجده » قطن معشوقته التى ستزف إلى منافسه فى الغرام ...

وعلى وجه غير هذين الوجهين لا أستطيع أن أفهم هذا التمثال ولا أن أستسيغه ، فأيهما كان هذا الشاب صاحب هذا التمثال ؟ على أى حال إن هذا أمر لا يعنينا وإنما يكفينا أن نلمح هذا اللون أو ذاك من الحياة فى التمثال ، فليس لنا عند الفنان أكثر من أن يسقينا شهده ، وليس لنا عليه أن يكون هذا الشهد مما نعرف أو مما سبق لنا أن ذقناه ...

إنه « منجد » رأته هكذا الآنسة جلاديس بولاد ... ولها أن تفخر بأنها رأت شيئاً وبأنها تحس وتدرك ثم تعبر عما تقف أمامه زائرة كالتى رأيناها لا تعرف الفرق بين بائع الجيلاتى وبائع القرقسوس ...

انتهيت من هذا « المنجد » ونظرت يمنة ويسرة فلفتنى تمثال لفجرية تبين « زينا » لامرأتين ترويتين استند إلى كتف إحداهما طفل ... كنت على بعد خطوات من التمثال أراه ولا أرى تفاصيله وملامح وجوهه ، فجذبنى إليه « موضوعه » واقتربت منه أبحث عن فعل الفنان فيه ، فالفجرية امرأة لها عقل أبرع من بقية العقول ، ولها نظرات أنفذ من بقية النظرات ، ولها إشارات أكثر امتلاء بالمعانى من بقية الإشارات ، والنسوة اللواتى يجلسن إلى الفجرية يستفتينها فى شؤونهن لسن هادئات ولا ناعمات ، وإنما تثور فى نفوسهن رغبات ، وتصطرع فيها آمال ، وتتخبط فيها نزوات ولواعج ، والصبى الذى يستند إلى كتف أمه ويقف يسمع الفجرية تحدثها لا يمكن أن يخلو من الفضول وحب الاستطلاع ، ولا بد أن يظهر فى وجهه تفرس يتتبع به هذا الكلام العجيب الذى يسمعه والذى يحسه لا يشبه غيره من الكلام ...

دنوت من التمثال لأرى فيه هذا كله فماذا رأيت ؟

رأيت الفجرية ناعمة والمرأتين ناعستين والصبى المستند إلى

كتف أمه شارد الروح ... بل إن شارد الروح يدل على نفسه ، فيعرف الناظر إليه أنه قد سرح إلى دنيا غير هذه الدنيا ، فهو موجود فيها ، وإن كان مفقوداً فى دنيانا ... أما هذا الطفل ، فقد ظهر عليه أنه ابتلع روحه ، فهى فى بطنه محبوسة لا تكسوه حياة الأرض ولا تنتقل به إلى حياة أخرى ...

كان هؤلاء الجماعة أشبه الجماعات بتلاميذ المدارس فى الحصة الخامسة بعد أكلة العدس ... منهافتين إلى النوم ، متبلدين عن الفهم ، ولم يكن فيهم ما يكون فى نجربة وجماعة مصغين إليها ... فكيف دخل هذا التمثال هذا المعرض ؟ وأى شىء فيه أغرى المعرض بعرضه ؟ ... هذا ما يعلمه الله وما يعلمه أولئك الذين يقولون : إنهم يشجعون الفنانين الناشئين . والذين أريد أن أقول لهم : إن تشجيع الفنانين الناشئين لا يصح أن يكون على حساب الفن، ولا يصح أن يتعدى حدود التشجيع إلى أن يكون تحريضاً على الفن ، وإكراهاً له أن يخضع ويذل لمن لا يكرمه ويفسح له روحه ونفسه . وهذه كلمة شديدة لا أريد منها إلا أن تحفز صاحب النجربة على أن يمعن فى التأمل إذا تأمل وأن يثابر فى تجويد التعبير إذا أقبل على تمثال جديد ، فإذا لم يجد فى نفسه القدرة على ذلك استرزق الله عملاً آخر غير الفن ...

وبدأ الزحام الذى كان محيطاً بهدى هاتم شعراوى فى الركن البعيد ينحل قليلاً قليلاً ، فقصدت إلى ذلك الركن فكان أول ما استرعى نظرى فيه تمثال آخر صغير لبائع المرقسوس حسبته أول ما رأيته أنه من صنع آنسة أو سيدة لما رأيت فيه من حنان وإعجاب ذاعا فى تكوينه ونحته، وتفصيل جوارحه تفصيلاً لا يمكن إلا أن يكون استجابة لطرب كانت ترقص به اليدان اللتان نحتتا هذا الجسم الفارع المشوق الأنيق . حسبت هذا ولكننى علمت أنه من صنع شاب هو سيد زيدان، فهنأته به ولم أكتم عنه ما خطر لى فابتسم فى استحياء كمن لم يكن يحب أن يقال له كلام كهذا ، ولكنى هونت عليه بأنه لا حرج على الفنان الرجل أن يعجبه جمال الرجال ... وإنى أعتقد أنه لو كان زيدان قد اهتم بوجه تمثاله هذا على نحو ما لكان قد عرض إلى جانب هذا الجسم الحلو وجهاً فيه شىء ما نذكره له إلى ما ذكرناه من جمال البدن فى تمثاله ، ولكنه استغرق فى الذراعين والساقين والكتفين ، وغير ذلك واكتفى بذلك ...

واكتفيت أنا أيضاً بذلك وهممت أن أنصرف، لولا أنى رأيت عبد السلام الشريف ينطلق إلى تمثال « عازف الربابة » ليقرأ اسم صاحبه فقرأت الاسم معه وسألته رأيه فى التمثال وصاحبه فقال : التمثال بديع وصاحبه أحمد صدقى مثال محسن

وعبد السلام الشريف فنان فى الصف الأول من الفنانين المصريين ، له أسلوب فى الرسم والزخرفة لم يسبقه إليه إنسان ، وقد أحدث القارئ عنه فى فرصة قريبة ، وفنان هذا شأنه لا بد أن يكون لشهادته قيمتها . والحق أن تمثال العازف على الربابة تمثال بديع ولو أنه لم ينل جائزة ، وميزته أنه منحوت على النهج الفرعونى وفق الطريقة التى أحياها المرحوم مختار ، ومع هذا فإن صاحبه احتفظ « بقاهريته » فى وجه التمثال فلم ينحته عن واحد من أبناء الصعيد أو أبناء الريف ، وإنما صوره وجهاً قاهريا فيه تأنق القاهريين ، ولطربوشه ميلان التأنق الذى يصطنعه أبناء القاهرة ، ولشاربيه انتظام شواربهم وإحسان تنظيمها

ولا ريب أن هذا التمثال كان أحق بالجائزة من التمثال الذى نال الجائزة الثانية ، ولكنهم قالوا لى : إنهم منحوا الجائزة الثانية لآنسة متعمدين كى يشجعوا الجنس اللطيف على غزو ميدان الفن

وأنا منذ اليوم أنذرهم بأن ليس فى الجنس اللطيف هذا أمل كبير فى الحصول على فن من صنع يديه ، فعليهم فى المسابقات المقبلة أن يراعوا الحق فذلك خير .

عزيز أحمد فهمى

سـدود وأمواج

كتاب تحوم الحقيقة على صفحاته بجناحين من فكرة وأداء

سدود وأمواج

كتاب تتلاطم فيه أمواج الصراحة بسدود الأوضاع

سدود وأمواج

كتاب يتأهب للميدان مزوداً بعزة الثقة وكبرياء العقيدة

يصدر بعد أيام « محمد العشماوى »

ثوب من المجد ..!

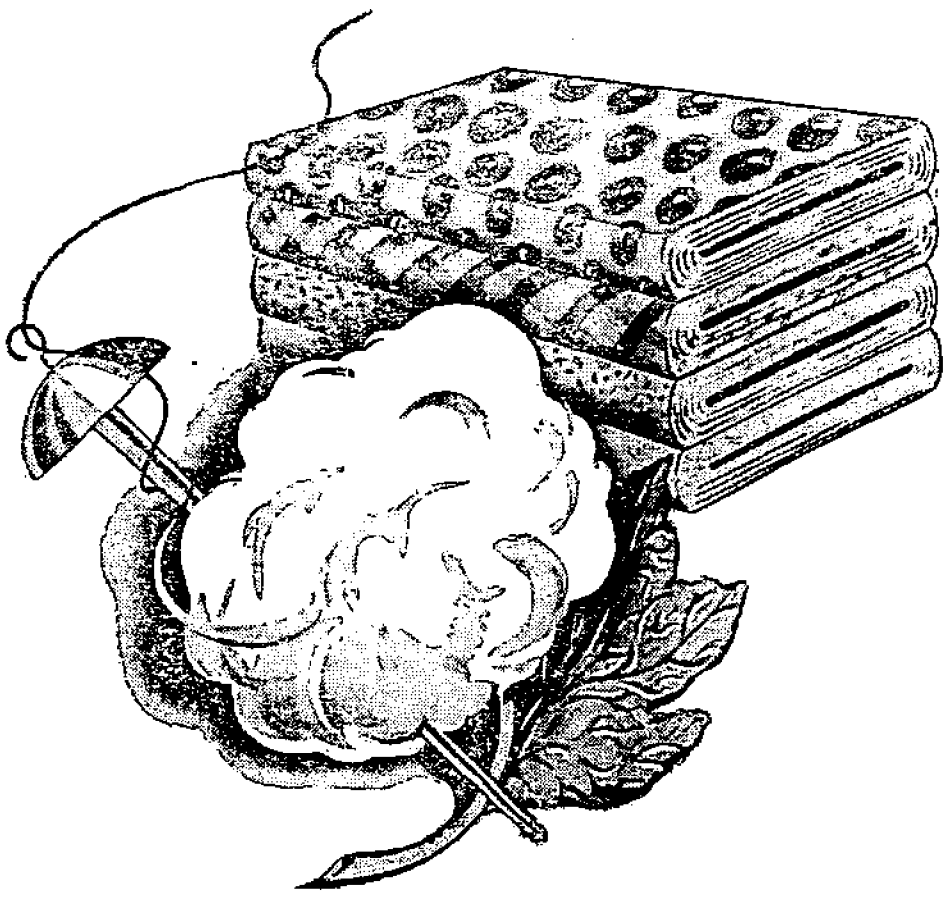

الزراع مصري والحالج مصري

والغازل مصري والناسج مصري

مكتب إعلانات مصر

شركة مصر للغزل والنسيج